دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

| | |
|---|---|
| العنوان: | مشروع الإحصاء المعجمي للشعر التونسي الحديث |
| المصدر: | مجلة المسار |
| الناشر: | إتحاد الكتاب التونسيين |
| المؤلف الرئيسي: | ابن عمر، محمد صالح |
| المجلد/العدد: | ع61,62 |
| محكمة: | لا |
| التاريخ الميلادي: | 2003 |
| الشهر: | افريل |
| الصفحات: | 87 - 100 |
| رقم MD: | 744415 |
| نوع المحتوى: | بحوث ومقالات |
| قواعد المعلومات: | AraBase |
| مواضيع: | الشعراء التونسيون ، الشعر العربي، الإحصاء المعجمي |
| رابط: | http://search.mandumah.com/Record/744415 |

© 2020 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

# مشـــروع الاحصـــاء المعجمـــي للشعـــر التـــونسي الحديـــث

محمد صالح بن عمر

لقد نبعت في ذهني فكرة مشروع الاحصاءالمعجمي للشعر التونسي الحديث منذ عشرين سنة خلت ، بعد اطلاعي على الاعمال التاسيسية لهذا المنهج في الغرب تنظيرا وتطبيقا(1).

وعلى الرغم من اقتناعي و قتذاك بصعوبة تنفيذ هذا المشروع كله او حتى جانب منه لما يتطلبه من جهود جبارة تقصر عنها طاقة الفرد الواحد ومن امكانات مادية لا تقدر على توفيرها الا المؤسسات المترفهة الاحوال ، فقد اغرتني الفكرة وملكت علي عقلي ووجداني الى ان وجدتني مدفوعا دفعا الى المحاولة دون ان يكون لدي ادنى اقتناع بالقدرة على المواصلة فضلا عن النجاح. فكيف يتحقق لي مثل هذا الاقتناع وقد اقدمت على العمل خارج اي اطار تنظيمي وبوسائل اقل ما يقال فيها انها بدائية ؟والحال ان تطبيق منهج الاحصاءالمعجمي على مدونة شعرية مهما صغرت يقتضي تضافر جهود عدة باحثين.وذلك لتنوع الوخدات المعجمية من اسماءوافعال وصفات وتوزع كل نوع منها على حقول دلالية شتى كالانسان والحيوان والجماد والنبات والاحداث والصفات والحالات والمفاهيم المجردة.وهو ما يتطلب عملا تصنيفيا واسع النطاق لا تخرج عنه اي وحدة من وحدات المدونة.

وبعد عناء التجريد والتصنيف ينبغي احصاءتواتر الوحدة الواحدة داخل المدونة الشعرية ثم داخل المدونة المعجمية كلها ثم داخل الحقل الدلالي الذي تنتمي اليه. ولما كان الاحصاء علما قائم الذات ليس من المفروض ان يلم به الناقد الادبي وحتى الباحث اللساني فان الحرص على صحة النتائج يقتضي مبدئيا الاستعانة باحصائيين واعلاميين.

لكنني رغم اقتناعي بكل هذه الضرورات مع استحالة توفيرها لم أسلّم بعجزي ولم أقبل أن يبقى هذا المشروع الذي لا تخفى فوائده للشعر التونسي الحديث مجرّد حلم أو فكرة طوباويّة.فقررت ذات يوم من أيام سنة 1980 أن أبدأ في تحقيقه على أن يكون ذلك خطوة خطوة ودون إلزام نفسي ببرنامج محدّد أو بنسق في العمل معيّن أو بآجال مضبوطة.

**محاولة تطبيقية أولى على شعر الشابي :**

ولئن استقر رأيي على أن أبدأ على سبيل التجربة بـ «أغاني الحياة» الديوان الوحيد لشاعر تونس الأول(2) فقد وجدت نفسي إزاء خيار صعب : إمّا أن أحصي الوحدات المعجمية الواردة في هذا الديوان إحصاء شاملا وأمّا أن أقوم بضرب من الإحصاء الوظيفي على هدي من العنوان «أغاني الحياة»، إفتراضا مني أن المعيجمات في كل مدوّنة شعرية صنفان : أحدهما مفيد والآخر قليل الفائدة وأن عنوان الديوان الذي غالبا من

يكون اختياره من لدن الشاعر واعيا مدروسا يصلح - مبدئيّا - لأن يكون مفتاحا للأثر.

وقد اخترت في مرحلة أولى، الطريقة الثانية من الإحصاء. فاستخرجت من الديوان كلّ المفردات الدّالة على المسموعات. فوجدت عددها 823 مفردة تتوزّع على أبيات المجموعة بمعدل مفردة واحدة في كل 3.05 أبيات. وهو ما يكشف عن مدى أهميتها في شعر الشابي. أمّا الأصوات التي تدل عليها فعددها 91 صوتا أكثرها تواترا «الغناء» (119 مرة) يليه في الرتبة «النشيد» (87 مرة) ثم «التغريد» (52 مرة). وهذه الألفاظ الثلاثة تشكّل معا أكبر نسبة من تواتر المسموعات في الديوان وهي 35 بالمائة، وهو ما جعلني أرجح وجود صلة قوية بينها وبين عنوان المجموعة «أغاني الحياة».

وانصرفت بعد ذلك إلى ضبط مصادر كلّ مسموع من المسموعات المحتلّة للمراتب الأولى في سلّم التواتر. فوجدت «للغناء» 85 مصدرا و «للنشيد» 73 و «للتغريد» 25 ثم كشف الإحصاء عن اشتراك «الغناء» ومرادفيه في مصدر بثّ أساسيّ هو «الطائر» (48 مرة) يليه من حيث التواتر «الشابي» نفسه (25 مرة) ثم «الحياة» (18 مرة).

وقد قادتني هذه الملاحظات إلى استنتاج مهمّ. وهو أن المسموعات الغالبة في المحيط السمعي للشابي مسموعات نغميّة تبثّها مصادر أساسية إثنان منها حقيقيتان ملموسان (الطائر والشاعر) والثالث معنوي مجرّد (الحياة).

ولعله بإمكاني القول إنّ هذه المصادر الثلاثة ليست سوى مصدر واحد هو «الحياة» التي تغنّي بلساني الطائر والشاعر بل وبألسنة كل الكائنات الحيّة أغاني متنوعة الألحان، مختلفة الأنغام لتفصح عن وجودها في كل كائن منها.

وقد يحمل هذا الاعتقاد أن الغناء، في نظر أبي القاسم الشابي، هو الصوت المعبّر عن الوجود الحيّ. وبذلك فقد تصح هنا المعادلة التالية : أغنّي : إذن أنا موجود. كما قد يصح ترادف الصمت والموت، في نهاية المطاف، ضرورة الغناء لكلّ كائن في الكون يريد إثبات وجوده وتأكيد انتمائه إلى الحياة.

* * *

هذه المحاولة الأولى وإن أفضت إلى نتائج اطمأننت إلى بعضها فإنها لم تقنعني الاقناع التامّ. وذلك لأن الاقتصار على إحصاء صنف معيّن من المفردات لا يمكّن عمليا من تصوّر قيمة ذلك الصنف بالنسبة إلى مجموع مفردات المدوّنة. وقد قادني هذا النقد الذاتي إلى تصميم طريقة أخرى في الإحصاء المعجمي إنجع في دراسة الشعر تقوم على التجريد الشامل لمفردات المدوّنة الشعرية المدروسة ثمّ احصاء تواترها مفردة مفردة داخل تلك المدوّنة لتحديد المفردات الأكثر تردّدا في لغة الشاعر واتخاذها مفاتيح لولوج عالمه الخاص والوقوف على رؤيته المتفرّدة وفلسيفته الجمالية المتميّزة واستكشاف أبعاد شخصيته الحقيقية الكامنة في غياب لا وعيه. وذاك لأن المفردات القليلة التواتر غالبا ما تكون وظيفتها مرجعية أيّ معبّرة عن الظروف التي تتحقق فيها عملية

التلفظ لا عن ذات المبدع ورؤيته.

وللزيادة في نجاعة هذا المنهج رأيت من المفيد إتباع الإحصاء الشامل لمفردات المدونّة الشعرية باحصاءات جزئية تهمّ ثمانية عشر حقلا دلاليا هي التالية : 1) الإنسان ـ 2) الحيوان ـ 3) النبات ـ 4) الجماد الطبيعي ـ 5) الجماد الصناعي ـ 6) الزمان ـ 7) المكان ـ 8) المسموعات ـ 9) الألوان ـ 10) الشهومات ـ 11) المفاهيم المجردة ـ 12) العوامل الطبيعية ـ 13) الأعضاء الحسيّة والمعنويّة ـ 14) الأفعال ـ 15) الحالات العامة ـ 16) الصفات ـ 17) الحالات والمشاعر الإنسانية ـ 18) الأوضاع.

**محاولة تطبيقية ثانية على شعر منور صمادح**

هذا المنهج طبّقته على مجموع دواوين منوّر صما دح الصادرة قبل الاستقلال(3). وهي «الفردوس المغتصب»(4) و «فجر الحياة»(5) و «حرب على الجوع»(6) و «صراع»(7) و «الشهداء»(98). فكانت نتائج الإحصاء كالآتي :

1) الإنسان 203 ألفاظ (20،94 بالمائة) من العدد الجملي للألفاظ الواردة في المدوّنة).

2) الحالات العامّة : 134 لفظا (13،92 في المائة).

3) الأفعال : 97 لفاظ (10،01 في المائة).

4) الأمكنة : 81 لفظا (8،35 في المائة).

5) الحالات والمشاعر الإنسانية : 78 لفظا 8،05 في المائة).

6) الصفات : 72 لفظا (5،77 في المائة).

7) الجماد الصناعي : 56 لفظا (5،77 في المائة).

8) المفاهيم المجرّدة : 42 لفظا (4،33 في المائة).

9) المسموعات : 37 لفظا (3،80 في المائة).

10) الأعضاء : 36 لفظا (3،71 في المائة).

11) الأزمنة : 33 لفظا (3،40 في المائة).

12) الجماد الطبيعي : 20 لفظا (2،06 في المائة).

13) الأوضاع : 20 لفظا (1،85 في المائة).

14) الألوان : 18 لفظا (1،85 في المائة).

15) النبات : 18 لفظا (1،85 في المائة).

16) الحيوان : 12 لفظا (1،23 في المائة).

17) العوامل الطبيعية : 5 ألفاظ (0.51 في المائة).

18) المشمومات : 4 ألفاظ (0،41 في المائة).

لعل أهم حقيقة أرشدنا اليها هذا الجدول هي أن الإنسان وما يتّصل به من أفعال وحالات ومشاعر وصفات وجماد صناعي ومفاهيم مجرّدة تحتل المراتب العليا من سلّم التواتر على حين وردت عناصر الطبيعة كلها من مسموعات وجماد طبيعي ونبات وحيوان وعوامل طبيعية ومسموعات في المراتب السفلى بنسب ضعيفة جدا لا تصل إلى 4 في المائة. وهو ما يجعلني أستنتج أن توجّه منور صمادح في تلك الدواوين ليس رومنطيقيا. ولا تبرّر طبيعة الغرض المطروق ـ أي الغرض الوطني ـ هذا الحضور المحدود جدا لعناصر الطبيعة لأن الكثير منها قابل للتوظيف في تصوير الأفعال والمواقف النضالية مثلما هو شأن في أشعار أبي القاسم الشابي الوطنية.

أما إحصاء المفردات في مستوى الحقول الدلاليّة الثمانية عشر التي حددتها آنفا فقد كشف أولا عن وجود علاقات معنويّة متينة بين العناصر التي تحتلّ الصدارة في هذه الحقول. وذلك كالآتي :

| الحقل الدلالي | العنصر الأكثر تواترا فيه |
|---|---|
| الإنسان | الشباب |
| الحالات العامة | الحياة |
| الأفعال | الثورة |
| الأمكنة | الأرض |
| الحالات والمشاعر الانسانية | الحبّ |
| الصفات | المجد |
| الجماد الصناعي | الخبز |
| المسموعات | اللحن |
| الأعضاء | القلب |
| الأزمنة | اليوم |
| الجماد الطبيعي | النجم |
| الأوضاع | حرف الجرّ: في |
| الألوان | النور |
| النبات | الزهرة |
| الحيوان | الطائر |
| العوامل الطبيعية | الريح |
| المشمومات | العطر |

يبرز لنا هذا الجدول أن جميع العناصر الأكثر تواترا في الحقول الدلالية الثمانية عشر عناصر إيجابية لا سلبيّة. فالشباب تقابله الشيخوخة، والحياة يقابلها الموت، والثورة يقابلها الجمود والاستسلام، والأرض بمعنى الوطن يقابلها التشرّد والانبتات وبمعنى الدنيا أيواقع الناس المادّي تقابلها السماء والغيب، والحب يقابله الحقد، والمجد يقابله الذلّ والوضاعة، والخبز يقابله الجوع، واللّحن يقابله الضجيج، والقلب تقابله العواطف المتحجرة، واليوم ياقبله الأمس، والنجم يقابله الحضيض، والنور يقابله الظلام، والزهرة يقابلها الشوك، والطائر يقابله فقدان الأجنحة، والعجز عن الانطلاق، والريح من حيث وظيفتها التلقيحية يقابلها العقم ومن

حيث قدرتها على تحريك السواكن يقابلها الخمول، والعطر يقابله النتونة وخباثة الرائحة.

فعلى الرغم من أن الشاعر يعيش داخل أتون واقع متفجّر متردّ اجتماعيا فإن القيم والافكار والمشاعر والموجودات التي تهيمن على ذهنه ووجدانه تشكّل النقيض الايجابي لذلك الواقع. وهو ما يمنح شعره بعدا تجاوزيا يتخطى به السائد الحالك إلى البديل المشرق الذي ينبغي أن يكون.

كما كشف الإحصاء عن وجود هيكلة دقيقة لكل حقل من الحقول الدلالية الثمانية عشر التي تتوزّع عليها مفردات المدونة الشعرية لمنور صمادح. وإليكم هذا النموذج. وهو حقل «الإنسان» الذي يضم أكبر عدد من مفردات المدونة.

**حقل «الإنسان» :**

يتبوأ «الشباب» - كما أسلفنا - الصدارة في ترتيب العناصر المكوّنة لحقل «الإنسان» (17 مرة) ويرد بعده في الرتبة الثانية «الشعب» ثم «الجموع» (13 مرة) فـ «الناس» (10 مرات) فـ «الأمّة» (8 مرات) فـ «الفتى» (24 مرة».

وإذا واصلنا تطبيق هذا المقياس على بقية عناصر الحقل فجمعنا تواترات كلّ الألفاظ المرادفة لـ «الشعب» وتواترات كل الألفاظ المرادفة لـ «الشباب» تحصلنا على النتيجة نفسها إذ يتبيّن لنا أن تواترات الشعب ومرادفاته (60 مرة) هي تقريبا ضعف تواترات «الشباب» ومرادفاته (34 مرة).

والحقيقة أن «الشعب» في هذا الحقل لا يتقابل و «الشباب» لأنّ «الشباب» جزء لا يتجزأ من «الشعب» إنما المقابلة الأساسية هي بين «الشعب» و «المستعمر» وذلك لأن جلّ عناصر الحقل يمكن توزيعها على هذين المركزين الدلاليين. ويتضح من إحصاء الألفاظ المتصلة بكل مركز منهما أن مركز «المستعمر» لا يتعدى 35 لفظا يبلغ تواترها الجملي 53 مرة على حين يضم مركز «الشعب» 165 لفظا يبلغ تواترها الجملي 275 مرة ويعني ذلك أن المركز الدلالي «الشعب» يشكّل من حيث عدد الألفاظ ثلاثة أرباع «حقل الإنسان» ومن حيث عدد التواتر 80،87 في المائة من عدد التواتر الجملي لكل الألفاظ. وفي هذا دلالة واضحة على أن اهتمام منوّر صمادح منصبّ أساسا في قصائده الوطنية هلى شعبه وأن العدو رغم عدّته وعتاده وتحكّمه في الرقاب لا يشغله ولا يقضّ مضجعه لإيمانه الراسخ بأن الشعب أقوى وأعظم. ولعلّ ما يؤكد صحة هذا الاستنتاج أن نظرة الشاعر إلى العدو جمليّة ونظرته إلى الشعب تفصيلية. فـ «العدو» رغم الألفاظ الخمسة والثلاثين التي استعملت للدلالة عليه يلوح، في الغالب، عنصرا واحدا له صفات متشابهة أحيانا، متنوعة أخرى كالظلم والبغي والطغيان والنذالة والإجرام والاحتيال. وقلّما عثرنا على عناصر فرعية تمتني إليه كالجيش أو البوليس أو العساكر. أما «الشعب» فهو يضم مراكز دلالية فرعية بارزة يشتمل كلّ مركز فرعي منها على مراكز أصغر. فمن حيث السن نجد ثلاثة مراكز صغرى «الشباب» (24 مرة) و «الأطفال» (10 مرات) و «الشيوخ» (5 مرات) ومن حيث الانتماء الطبقي يعترضنا مركز بارز «الطبقة الدنيا» (29 مرة) ومن حيث الجنس

يعترضنا مركزان : مركز «الذكور» (95 مرة) ومركز «الإناث» (33 مرة).

ولا تفسير لهذا التفصيل غير معايشة الشاعر للفقراء والمناضلين من شعبه والتصاقه الشديد بهم من كلا الجنسين ومن كلّ الأجيال. وهو ما يؤكد النزعة الواقعية لمنورّ صمادح وتجاوزه للرومنطيقية التي أرسى أسسها أبو القاسم الشابي في الشعر التونسي وظلّ تأثيرها عميقا في أشعار الشبان الذين ظهروا من بعده. فالإنسان في أشعار منور صمادح الأولى ليس كائنا مجرّدا كذلك الذي أوهم بوجوده «الانسانيون» إنّما هو الإنسان الواقعي الذي يحمل خصائص طبقته وجيله وجنسه.

وبعد تفحص البنى المعجمية لبقية الحقول وتواتر المفردات التي تشتمل عليها انتهيت الى ثلاثة استنتاجات تتعلق بخصائص التجربة الشعرية لمنور صمادح في عهد الحماية وهي التالية :

1) ليس شعر منورّ صمادح شعرا تقليديا رغم تخرّجه الديني ورغم تقمّصه شخصية الشاعر بالمفهوم العربي القديم. وهو ذلك المدافع بقريضه عن القبيلة أو القوم. وقد ثبت ذلك حين كشف الإحصاء عن ضعف تردّد الألفاظ المحيلة على الصحراء ونمط الحياة السائد فيها أو حتّى على أنماط الحياة التي سادت في العصور العربية الإسلامية اللاّحقة.

2) ليس شعر منور صمادح شعرا رومنطيقيا رغم تأثير أبي القاسم الشابي العميق في أكثر شعراء الجيلين اللاحقين له جيلي الأربعينات والخمسينات. وقد انتفت النزعة الرومنطيقية لدى الشاعر بفضل تقمصّه الذات الجماعية في أكثر قصائده على حساب الذات الفردية وارتباطه الشديد بالحاضر والواقع اليومي وعدم هروبه إلى أحضان الطبيعة.

3) إنّ الصفات نفسها التي نفت عن شعر منور صمادح الانتماء إلى المدرسة الرمنطيقية تجعله ألصق بالمدرسة الواقعية. وإن صحّ هذا الاستنتاج النهائي وهو الزقرب إلى الصواب، في نظرنا، فلا يكون فيه أيّ غرابة لأن الواقعية كانت المذهب السائد في الوطن العربي خلال النصف الثاني من الأربعينات وطيلة الخمسينات ولأن الشاعر كان شديد الاتصال بالمنظمة النقابية الوطنية الوليدة آنذاك : وهي الاتحاد العام التونسي للشغل.

فهل يجوز إذن إن أشعار منور صمادح الأولى تمثل التحوّل الحقيقي الأوّل في الشعر التونسي الحديث بعد ظاهرة أبي القاسم الشابي ؟!.

**محاولة تطبيقية ثالثة على شعر سعيد أبي بكر :**

لعلّ المزية الأساسية لمثل هذه المحاولة قيامها على الإحصاء المعجمي الشامل. وهو ما يمكّن من استكشاف مواطن الافادة في تجربة الشاعر قصد توجيه الاهتمام اليها وتركيز العناية عليها أثناء التحليل.

ولهذا السبب قررت مواصلة استخدام هذا المنهج في دراسة الشعر التونسي. فطبّقتها مع شيء من التعديل على مدوّنة شعرية أخرى هي مجموع أشعار سعيد أبي بكر(9) التي يضمها ديواناه «السعيديات» (10) و «الزهرات أو زهرة بعد زهرة» (11).

أما التنقيح الذي أدخلته عليه فهو يتمثل في أمرين:

1) توزيع قائمة الألفاظ الكاملة التي تشتمل عليها مدوّنة

الشاعر على معجمين سمّيت أحدهما «المعجم الأكبر» وهو يضم الألفاظ الواردة في متون القصائد والآخر «المعجم الأصغر» وهو يضمّ الألفاظ التي تتألف منها العناوين.

2) الاكتفاء، عند التحليل، بدراسة المفردات التي تحتلّ المناطق العليا من سلّم التواتر باعتبارها تؤلّف ما اصطلحت على تسميته «الرصيد الإفادي». لكن تحديد مثل هذا الرصيد يقتضي اختيار عتبة فاصلة بينه وبين المناطق الادنى منه. ولا يكون مثل هذا الاختيار إلا اعتباطيا. فكان اختيارنا للعدد 20 الذي يفصل نظريا بين الألفاظ الـ 21 الأولى وغيرها من الألفاظ في سلم التواتر. مع الملاحظة أن عدد التواتر 20 يغطي أكثر من سدس المدونّة 6،5/1 أي ما يمثّل نسبة 20،15 في المائة منها.

هذا الرصيد الإفادي في شعر سعيد أبي بكر هو التالي :

| منطقة التواتر | عدد الألفاظ المتواترة | الألفاظ المتواترة و أعداد تواترها |
|---|---|---|
| 1 ـ من 50 إلى 100 مرة | 1 | رؤية (92 مرة) |
| 2 ـ من 40 إلى 49 مرة | 4 | لقاء (46 مرة)<br>يوم (45 مرة)<br>حياة (44 مرة) |
| 3 ـ من 30 إلى 39 مرة | 4 | يد (42 مرة)<br>شعب (36 مرة)<br>عيش (36 مرة)<br>قلب (34 مرة)<br>نفس (33 مرة) |
| 4 ـ من 20 إلى 29 مرة | 12 | رمي (28 مرة)<br>زهرة (28 مرة)<br>أرض (27 مرة)<br>بلاد (24 مرة)<br>روح (23 مرة)<br>عين (22 مرة)<br>مدّ (22 مرة)<br>غ صن (21 مرة) |

| | | |
|---|---|---|
| | | شرق (21 مرة)<br>نظر (21 مرة)<br>غرب (20 مرة)<br>صوت (20 مرة) |
| 5 ـ من 10 إلى 19 مرة | 56 | راجع الجداول |
| 6 ـ من 5 ـ إلى 9 مرات | 164 | راجع الجداول |
| 7 ـ من 3 إلى 4 مرات | 274 | راجع الجداول |
| 8 ـ مرات | 415 | راجع الجداول |
| **الجملة** | **930** | |

هذه الألفاظ الواقعة في المناطق العليا من سلّم التواتر تمثّل، إذن، «الرصيد الإفادي» في هذا البحث. وتفحّصها يمكّن من إبداء الملاحظات التالية :

ـ إنّ لفظ الصدارة «رؤية» يهيمن هيمنة مطلقة على بقية ألفاظ المدوّنة إذ يبلغ تواتره ضعف تواتر اللّفظ الثاني اللاّحق له مباشرة في الترتيب ويغطّي حوالي 70 بالمائة من المدوّنة.

ـ إنّ ألفاظ الرصيد تتوزع على سبعة حقوق دلاليّة مختلفة. وذلك كالآتي :

| الحقل الدلالي | الألفاظ |
|---|---|
| 1) الأفعال | رؤية، لقاء، رمي، مدّ، نظر |
| 2) الأعضاء الحسيّة والمعنوية | يد، قلب، نفس، روح، عين |
| 3) المكان | أرض، بلاد، شرق، غرب |
| 4) الحالات العامة | حياة، عيش |
| 5) النبّات | زهرة، غصن |
| 6) الإنسان | شعب |
| 7) الزمن | يوم |
| 8) المسموعات | صوت |

هذا الرصيد كاف للحصول على صورة تقريبيّة لعالم سعيد أبي بكر الإبداعي.

فهذا العالم عالم بصريّ في الأساس. وهو ما يتجلّى في هيمنة لفظ «رؤية» على بقية ألفاظ المدوّنة وفي التواتر المرتفع لمرادفه «نظر» ولمصدر هذين الفعلين الحسّيين : : «العين». وهذا يعدّ، في حدّ ذاته، خاصة بها يتميّز عالم سعيد أبي بكر إذا علمنا ـ مثلا ـ أن عالم شاعر تونس الأول أبي القاسم الشابي عالم سمعي تطغى فيه الأصوات على البصريات وغيرها من المحسوسات.

وإن هذا التوجه البصري لدى الشاعر ليتدعم بحيادية المستوى السمعي الذي يطغى فيه «الصوت» مطلقا دون تخصيص أو تدقيق حتى لكأن تركيز الشاعر اهتمامه على المنظور من الأشياء قد قلّص لديه بقيّة الحواس وأضعف بعضها إلى حدّ ا لتّلف.

على أن بصريّة عالم سعيد أبي بكر لا تخلو من الإشكال. فما هي طبيعة الرؤية التي يرسلها على العالم الخارجي؟ أهي رؤية موضوعية لعالم أو مفكر؟ أم رؤية ذاتية لفنان؟. إن غياب الألفاظ الدالة على المفكّرة والتفكير في مناطق التواتر العليا وارتفاع تردّد الألفاظ الدالة على مصادر الإحساس في الإنسان وهي «القل» (34 مرة) و «النفس» (33 مرة) و «الروح (23 مرة) لدليلان قاطعان على أن الذي ورا ء «عين» سعيد أبي بكر ليس عقلا مفكرا محلّلا بل نفسا طافحة بالمشاعر وقلبا نابضا بالأحاسيس. وفي ذلك تفنيد للرأي الشائع حول شخصيته وهو أنه «شاعر العقل لا شاعر القلب».

فلئن أرّقته الهوية وموقعية وطنه («أرض 27 مرة و «بلاد» 24 مرة) الحضارية بين «الشرق» (21 مرة) و «الغرب» (20 مرة) فليس ذلك كافيا وحده ليجعل منه مفكرا أو فيلسوفا، لأن قضيته تلك كانت القضية الأولى لأكثر المثقفين التونسيين منذ أواسط القرن التاسع عشر ولأنه لم يتميّز عنهم في تناولها بإضافة أو إثرا ء. إنما كانت قضية عامة، قضية كل الغيورين على الوطن. فتعامل معهم تعاملا عاطفيا لا فكريا، شأنه في ذلك شأن الفنانين الأصليين الذين لا يضعون ـ بالضرورة ـ الأفكار المجردة والنظريات لكنهم إن تعلقوا بها «غرسوها في حقول ذواتهم حتى إذا نمت وأثمرت قدّموا قطوفها للناس طازجة لذيذة».

فما سعيد أبو بكر بمفكر، إذن، إنما هو شاعر. وما عالمه البصري ذلك بعالم عالم أو فيلسوف أو منظّر إنما هو عالم فنان. ولهذا العالم، فضلا عن ذلك، خاصتان أخريان تلفتان الانتباه. أولاهما غياب أوصاف المبصرات. فلا نجد في رصيد الشاعر الإفادي ما يدلّ على صفة حسيّة أو لون. والثانية طغيان الأفعال طغيانا مطلقا. وهو ما يظهر في انتماء لفظي الصدارة «رؤية» (92 مرة) و «لقاء» (46 مرة) إلى هذا الحقل وفي التردد المرتفع لثلاثة ألفاظ أخرى أحدها مرادف للرؤية وهو «نظر» (21 مرة) والآخران متقاربا الدلالة وهما : «رمي» (28 مرة) ، «مد» (22 مرة). فبصر الشاعر منجذب انجذابا بحركة الأشياء وسائر الكائنات لا بخواص ملامحها ودقائق صفاتها. وهو ضرب من النظر يسم عالمه بطابع حرميّ عميق الأثر. وإن هاتين الخاصيتين لتجعلاننا نستنتج، دون عناء، أن عالم سعيد أبي بكر تتفاعل فيه مهجتان مختلفتان لكن

متكاملتان هما : مهجة الشاعر التي تتمثل في الابصار بالقلب لا بالعقل وفي ضرب من ا لنظر المرشّح يسقط على حالات الأشياء لا على صفاتها ومهجة السّارد التي تظهر في تتبّعه بكل إلحاح، حركات الأشياء وسائر الكائنات ونقلها.

وقد ترتب على هذا الازدواج في شخصيته الفنّانة ازدواج في عالمه الابداعي الذي يبدو متألفا من عالمين متصاقبين متنافذين عبر كوّة صغيرة هي «العين» (22 مرة). هذان العالمان أحدهما داخلي وهو عالم «القلب» (34 مرة) و «النفس» (33 مرة) و «الروح» (23 مرة) والثاني خارجي فيه ما في العالم الموضوعي من إطار زماني («يوم» 45 مرة) وبشر («الشعب» 36 مرة) وحركة («لقاء 46 مرة) و «رمى» (28 مرة) و «مدّ» (22 مرة) ووجود حيّ («حياة» 44 مرة و «عيش» 36 مرة).

وليس هذان العالمان المتتاخمان بمتفاعلين إنما يفعل واحد منهما في الآخر ويؤثّر فيه. فالطاقة الإبداعية لسعيد أبي بكر تسير في خط واحد ثابت من الداخل نحو الخارج، تتولّد في عالمه الداخلي ثم تتسرّب عبن «العين» إلى العالم الخارجي فتنتشر في أرجائه كما التيار الكهربائي وتحرّكه تحريكا. وخير معبّر عن هذه الحركة الأمامية التواتر العالي لـ «الرؤية» و «النظر» و «الرمي» و «المد» .

كما قد ترتب على ازدواج شخصية سعيد أبي بكر الفنانة أي شخصية الشاعر السارد والتأثير المتبادل بين المهجتين المختلفتين فيه خلوّ رصيده الافادي من عنصري الخيال والوصف. فهو، بكل تأكيد، شاعر بلا خيال وسارد بلا وصف. فشاعريته يستمدها من طاقته الانفعالية لا من قدرته على التخييل وسرديته سرديّة انتقائية تنزع إلى تسجيل الحركة دون التوقف عند المتحرّك.

* * *

بعد هذه النتائج التي استخلصناها من دراسة الرصيد الإفادي لشعر سعيد أبي بكر تناولنا ـ كالعادة ـ الهيكلة المعجمية لكل حقل من الحقول الدلالية التي تتوزع عليها مفردات مدونّته الشعرية، مكتفين هذه المرة بـ 17 حقلا دلاليا بعد طرح حقل «الأوضاع» لأنه جزء لا يتجزأ من حقل الأمكنة. وقد خلصنا، في نهاية التحليل، إلى النتائج العامة التالية :

1) إنّ شعر سعيد أبي بكر شعر وجداني خلافا لما قيل فيه من أنه شعر عقل لا شعر قلب.

2) ليس سعيد أبي بكر بمفكر رغم سيطرة فكرة الاصلاح عليه لأنّه إنّما تعامل مع تلك الفكرة تعاملا ذاتيا عاطفيا لا موضوعيا تحليليا.

3) ليس شعر سعيد أبي بكر، في مجمله، شعرا رومنطيقيا رغم طابعه الغنائي الوجداني نظرا إلى قلة توظيفه لعناصر الطبيعة.

على أننا وإن سلّمنا بهذه الحقائق فإن مشكلة تصنيف الشاعر سعيد أبي بكر تبقى قائمة لأنّ الفترة التي نظم فيها شعره وهي العشرينات قد طغى خلالها محليا وعربيا تيارات شعريان هما : الشعر التقليدي المحافظ على بنى الشعر العربي القديم وأغراضه والشعر الرومنطيقي الذي رفع لواءه المهجريّون وجماعة

«الديوان». وذلك لأنّ الشاعرلم يكن ينتمي إلى هذا التيار ولا إلى ذاك كما أن غلبة النظرة الأفقية (شرق / غرب، تخلّف / تقدّم) على النظرة العمودية (الطبقة العليا / الطبقة السفلى( لديه تقصي إمكان انتمائه إلى التيار الواقعي الذي لم تتشكل ملامحه في الأدب العربي إلا بداية من أواسط الثلاثينات.

فما هي هوية سعيد أبي بكر الفنية إذن ؟

إنه شاعر وجداني دون أن يكون رومنطيقيا، متمسّك بأصالته الشرقية العربية دون أن يكون تقليديا أو سلفيا، متجذّر في أرضه وشعبه دون أن يكون واقعيا. فخطابه الشعري يعكس رؤية فنية متفردة سابقة للعصر، متجاوزة للمدارس ويصوّر ذاتا عازفة عن ا لماضي متفرغة إلى الحاضر، تواقة إلى المستقبل، متشبثة بقوى الحياة رغم تمزقها النفسي ومعاناتها الأليمة. وكلّ هذا كفيل، في نظرنا، بتنزيله في منزلة الأب ا لشرعي للموجات الشعرية الجديدة التي انطلقت في نهاية الستينات ثم انداحت لتشمل العشريتين المنقضيتين. فهو، بكل تأكيد، رائد من رواد الشعر الطليعي في الادب التونسي بله في الأدب العربي الحديث.

**محاولة تطبيقية رابعة على شعر الصادق مازيغ :**

لقد بيّنت هذه المقاربة(12) أن العدد الجملي للمفردات التي استعملها الصادق مازيغ في أشعاره المنشورة قبل الاستقلال يناهز الثلاثة آلاف مفردة (2975 على وجه التحديد) وأن التواتر الجمليّ لهذه المفردات هو 5743 مرة. ويعني ذلك أن معدل تواتر المفردة الواحدة لا يصل إلى المرتين (1،9 مرة). وهذا يدلّ على التنوع الشديد للوحدات المعجمية التي استعملها الشاعر إمّا لضغط أسلوبي وهو التحاشي المقصود للتكرار وإمّا لثراء زاد الشاعر المعجمي الذي يتيح له التصرف في مجموعات كثيرة من المترادفات.

كما بيّنت الدراسة أن أكثر المفردات تواترا في شعر مازيغ هي : الحياة (44 مرة) وأن لهذه الحياة إطارين متكاملين أحدهما مكانيّ ينطلق من «البلاد» (10 مرات) و «الأرض» (12 مرة) ثمّ يتّسع ليشمل الكون (24 مرة) بأسره والإطار الآخر زمانيّ مبدؤه «اليووم» (20 مرة) لكنه يمتدّ ليعانق الدهر (28 مرة) ومن ثمّة فإن لهذه «الحياة» التي يعيشها الشاعر بعدين : الأوّل آنيّ أرضيّ محدود تشير اليه المفردة «عيش» (22 مرة) والثاني مطلق مجرّد قد يصحّ التعبير عنه بـ «الوجود النقيّ» المتحرّر من قيود المادة والمتخطّي حدود المكان والزمان.

فعالم الصادق مازيغ، إذن، عالمان يحوي أحدهما الآخر. فهو يعيش يومه مع «الناس» (12 مرة) في أرضهم الضيّقة لكنه دائم الانشغال بالأبعاد والأرحب.

فالعالم الأسفل الضيّق يهيمن عليه الإنسان بقيمه السطحية ويدنسه بشروره وآثامه غير آبه بمواطن الجمال فيه. أما العالم الأرحب فهو الأكثر وضوحا لتعدد صفاته وارتفاع تواترها (جمال - حسن - سرّ - جلال - حقّ - نقاوة - خلود - سموّ - رحابة) ولكونه عامرا بوجود اللّه (11 مرة). والذي يلفت الانتباه هو انعدام الألفاظ المعبّرة عن الفعل في الدرجات العليا من سلم التواتر. فالشاعر ليس فاعلا في ذينك العالمين السفلي والعلوي بل هو «متأمّل» («العين» 14 مرة) كما يلفت الانتباه انعدام

المفردات الدالة على المفكّرة والعمل الذهني. فكل الألفاظ المعبّرة عن ذات الشاعر تدلّ على أحاسيس وحالات (هوى - حلم - حب - شوق - يأس).

فالصادق مازيغ يتبدّى من خلال شعره ذاتا عاطفية خالصة تنزع بضرب من التضخم الشعوري والانديّاح الحسّي إلى تجاوز المحدود قصد احتضان اللانهائي ومعانقة السرمدي.

هكذا يكشف لنا معجم الصادق مازيغ الشعري عن ذات عاشقة تنشد الخلود والرفعة والنور والجمال والحرية، ذات كونية رغم انطلاقها من الواقع المتردي الذي كان سائدا في عهد الحماية ورغم تجذّرها في التراث العربي الإسلامي.

فالصادق مازيغ يستوعب، في شعر، قسمات واقعه المأزوم محليا وعربيا وإسلاميا لكنّه لا يتخذ من تلك القسمات مجرّد موضوعات يطرقها أو قضايا يعالجها بل ينطلق منهها لصياغة بديل أرقى ليس واقعيا آنيا جافّا ولا رومنطيقيا شكائيا بكائيا ولا قوميا عرقيا عشيريا ولا إقليميا انعزاليا ولا دينيا سلفيا منغلقا ولا طرقيّا فلكلوريا ولا إنسانيا مجردا طبقا للمفهوم النهضوي لدى مفكّري القرن السادس عشر، إنما هو بديل نابع من أعماق الشاعر يلوح بين ثنايا معجمه على هيئة شعور بالانتماء إلى ذاتية إسلامية كونية. ولا تختزل هذه الذاتية لديه في شعارات ترفع كما أنه لا يجهد نفسه في صياغتا صياغة نظرية تجعل منها منظومة فكرية إنما هي مجرد إحساس يحمله في أعصابه ويطفح به وجدانه.

وطبقا لهذا الإحساس ترتّب ضمن خانة واحدة الأوضاع المترديّة محليا وعربيا وعالميا وظاهرة الاستعمار المتحكّم في الرقاب والحروب الدائرة رحاها على نطاق عالمي. وذلك لأن كل هذه الظواهر ترجع إلى سبب جوهري هو نزعة الشرّ التي تنخر النفس البشرية فتدفعها إلى إفساد الكون الإساءة إلى الآخر. ويقدم الشاعر الإسلام بلسما شافيا لتلك النفس فيطهرّها ويملؤها حبا نقيّا خالصا به تتّحدد مع الذات الإلاهية.

فما إسلام الصادق مازيغ، إذن، باسلام الملل والنحل السياسي ولا باسلام الفقهاء النصيّ الحرفي ولا باسلام العامة الشعائري الطقوسي ولا باسلام أصحاب «الطرق» الفولكلوري إنما هو ايمان عميق يسري في كيان الشاعر وبه تتحقق المعادلات الممتنعة بين اليومي والسرمدي، بين البلاد - الأرض والكون، بين المحدود والمطلق.

وهذه النزعة التي التي قد تفسرّ إقدام الصادق مازيغ على نقل النصّ القرآني إلى اللغة الفرنسية وتواجده مع الشاعر الفرنسي بودلير فيما عرّب له من القصائد.

## خـــاتمـــــة :

هذه المحاولات الأربع في تطبيق منهج الإحصاء المعجمي على الشعر التونسي قد استغرقت قرابة العشرين عاما لا لكوننا لم نتفرّغ لها فحسب بل لتهيّبنا كل محاولة قبل الإقدام على تنفيذها، إزاء ضخامة العمل الذي تتطلّبه وتقصر عنه جهود فرد واحد. ولهذا السبب لا نرى إمكانا للمواصلة إلا في نطاق عمل جماعي، وذلك بتشكيل فريق يضمّ باحثين ومعالجين معجميين

وأعلاميا واحدا على الاقل، وتتحدّد مهمة هذا الفريق في دراسة أهم التجارب الشعرية التونسية الباقية في عهد الحماية كتجارب الشاذلي خزندار والشاذلي عطا اللّه ومصطفى خريف وأبرز شعراء الجيل الأول بعد الاستقلال مثل تجارب محيي الدين خريف ونور الدين صمود والميداني بن صالح وجعفر ماجد.

ولعل تضافر جهود بعض المؤسسات التي يهمها مثل هذا المشروع كبيت الحكمة وبيت الشعر واتحاد الكتاب التونسيين بدعم من كتابة الدولة للبحث العلمي والتكنولوجيا من شأنه أن يخرجه من حالة التعثّر التي لازمته حتى الآن إلى طور التنفيذ الفعلي.

**الهوامش**

1) انظر في ذلك مؤلفنا «الثورة التكنولوجية واللغة» ـ دار الشؤون الثقافية العامة ـ آفاق عربية ـ أعظمية ـ بغداد 1986 ص ص 34 ـ 35

2) أبو القاسم الشابي : «أغاني الحياة» ـ الدار التونسية للنشر ط 5 ـ تونس 1980 (وهي الطبعة التي اشتغلنا عليها).

3) انظر : «الماوراء الشعري في تجربة منور صمادح الأولى» ضمن أشغال ندوة منور صمادح شاعر الحرية «بيت الحكمة» ـ قرطاج 1989 (مخطوط)

4) منور صمادح : «الفردوس المغتصب» ـ مطبعة القيطوني ـ تونس 1954.

5) منور صمادح : «فجر الحياة» ـ تونس 1955.

6) منور صمادح : «حرب على الجوع» ـ تونس 1955.

7) منور صمادح : «صراع» ـ المطبعة العصرية ـ تونس 1956.

8) منور صمادح : «الشهداء» تونس 1956.

9) انظر : «معجم سعيد أبي بكر الشعري ودلالاته» ضمن أشغال ندوة «سعيد أبو بكر شاعر التقدم» ـ بيت الحكمة ـ قرطاج 1990 (مخطوط).

10) سعيد أبو بكر : «السعيديات» ط 1 ـ سوسة 1926 ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس 1981.

11) سعيد أبو بكر : «الزهرات أو زهرة بعد زهرة» ـ تونس 1930.

12) انظر : «البنى المعجمية في شعر الصادق مازيغ» ضمن أشغال ندوة «الصادق مازيغ صوت الهوية والانفتاح» ـ دار الخدمات العامة للنشر ـ تونس 1996 ص ص 33 ـ 64 . وقد أحصينا في هذا البحث المفردات الواردة في أشعار مازيغ المنشورة قبل الاستقلال في المجلات التونسية التالية :

**أ ـ «العالم الأدبي» :**

ـ «اليأس الشارد» ـ السنة 3 العدد 3 ـ فيفري 1934 ـ ص 72.

ـ «شمس الخريف» ـ السنة 3 العدد 10 ـ سبتمبر 1934 ـ ص 184.

ـ «مرّ الزمان» ـ السنة 3 العدد 11 ـ اكتوبر 1934 ـ ص 13.

ـ «الحبّ الخالد» ـ السنة 4 ـ العدد 1 ـ نوفمبر 1934 ـ ص 4.

ـ «رمز الغرام» ـ السنة 4 العدد 3 ـ جانفي 1935 ـ ص 68.

ـ «الحديقة» ـ السنة 4 ـ العدد 4 ـ فيفري 1935 ـ ص 87.

ـ «سآمة» ـ السنة 4 ـ العدد 12 ـ اكتوبر 1935 ـ ص 242.

ـ «أهوى الحياة» ـ السنة 4 ـ العدد 13 ـ نوفمبر 1935 ـ ص 260.

**ب ـ «الثّريـــا» :**

- «قرطاجة أو خدعة الأيام» ـ العدد 7 ـ جوان 1943 ـ ص 20.
- «شهر الصيام» ـ العدد 9 ـ أوت 1944 ـ ص 16.
- «لقد وهبت بنات الخلد أبكارا» ـ العدد 13 ـ ديسمبر 1944 ـ ص 27.
- «زهور الحين» ـ العدد 3 ـ مارس 1945 ـ ص 20.
- «أيا شاعرا نلت الخلود متوّجا» ـ العدد 4 ـ افريل 1945 ـ ص 29.
- «الملاك الرحيم» ـ العدد 5 ـ ماي 1945 ـ ص 16.
- «أبدا أحنّ» ـ العدد 6 ـ جوان 1945 ـ ص 14.
- «عيد القلب أو عودة الروح» ـ العدد 8 ـ أوت 1945 ـ ص 18.
- «روض الإخاء» ـ العدد 10 ـ اكتوبر 1945 ـ ص 28.
- «أنشودة الصوّنة» ـ العدد 2 ـ فيفري 1946 ـ ص 16.
- «هو اللّه» ـ العدد 5 ـ ماي 1946 ـ ص 25.
- «مسخرة» ـ المصدر نفسه ـ ص 30
- «إلى معتوه» ـ العدد 6 ـ جوان 1946 ـ ص 25.
- «الضباب» ـ العدد 39 ـ جانفي 1950 ـ ص 287.
- «بلسم العزاء» ـ العدد 40 ـ فيفري 1950 ـ ص 18.

**ج ـ الباحث :**

- «التشابه الأزلي» ـ العدد 4 ـ جويلية 1944 ـ ص 7.
- «الملاك الرحيم» ـ العدد 5 ـ أوت 1944 ـ ص 7.
- «عروس الأحلام» ـ العدد 6 ـ سبتمبر 1944 ـ ص 7.
«عروس الخلد» ـ العدد 9 ـ ديسمبر 1944 ـ ص 7.
- «مأتم الأفلاك» ـ العدد 15 ـ جوان 1945 ـ ص 7.
- «حجرة الأيك» ـ العدد 16 ـ اكتوبر 1945 ـ ص 7.
- «شكوى الغريب» ـ العدد 22 ـ جانفي 1946 ـ ص 7.
- «الضلاّلة والظلاّم» ـ العدد 26 ـ ماي 1946 ص 8.
- «صولة الحق» ـ العدد المزدوج 30/29 ـ جويلية 1946 ـ ص 11.
- «روض الإخاء» ـ العدد 39 ـ جوان 1947 ـ ص 7.
- «شهر الصيام» ـ العدد 40 ـ جويلية 1947 ـ ص 8.
- «طيف السكون» ـ العدد 41 ـ سبتمبر 1947 ـ ص 9.

**د ـ « النّدوة» :**

- «درّة الفناء» ـ العدد 1 ـ جانفي 1953 ـ ص 11.